سقوط الامبراطورية الرومانية لجيبون

بقلم
الاستاذ على أدهم

نشأة جيبون وثقافته
وملابسات تأليفه كتاب
تداعى الإمبراطورية الرومانية وسقوطها

من الناس السعداء الموفقون الذين يخيل للإنسان وهو يطالع سيرتهم ، ويقلب صفحات حياتهم ، وسجل أعمالهم ، أن القدر يحبوهم ويترفق بهم ، وأن الأيام تسالمهم وتزيل من طريقهم الصعاب المعترضة ، وتيسر لهم العسير من الأمور ، ويمكن أن نلحق بهؤلاء الميامين المحظوظين إدوارد جيبون مؤرخ الإمبراطورية الرومانية العظيم .

ولم تخل حياة جيبون من متاعب وأزمات كانت توهم أن الحظ سيتخلى عنه ويغدر به ، ولكن سرعان ما كانت تتمخض هذه المتاعب والأزمات عن نعمة فى طى نقمة ، وكانت رحلته الدنيوية على هذا النمط من المهد إلى اللحد ، ولكنه لم يغتنم هذه الفرصة ليقصر وقته على اللهو والعبث وإنما وقف الجزء الأكبر منه للدراسة والتأليف .

ولد جيبون فى سنة ١٧٣٧ وكان الطفل الأول الذى ولد لوالديه ، وكذلك كان الطفل الوحيد الذى عاش لهما ، فقد رزقا بعده بستة أطفال ماتوا جميعاً فى طفولتهم ، ولم يكن جيبون فى أولى نشأته موفور الصحة سليما من الأمراض ، بل كان على العكس طفلا رقيق البنية ضاوى الجسد قد اصطلحت عليه طائفة من العلل والأسقام ، ولكن هذه الأمراض يسرت له متعة القراءة وغرست فى نفسه حب الاطلاع وحمته الانغماس فى اللهو المضيع للوقت والجهد والمعوق للتأمل والتفكير ، وماتت والدته فحلت محلها خالته ، وكانت شديدة العناية به وقد أظلته رعايتها فى مطالع الشباب وجنبته أخطاره وسددته ، ووقع له حادث حين انتسابه لجامعة أكسفورد حال دون بقائه بها ، وكان من أسباب ترحيله إلى لوزان ، وقد مكنه ذلك من اتقان اللغة الفرنسية ومعرفة الثقافة الأوربية ، وهداه إلى وضع أساس دراساته التى أثمرت فيما بعد ثمرتها وآتت أكلها ، وقد تزوج والده بعد وفاة والدته ولكن رابته لم تلد لأبيه أطفالا وصارت له خير صديق ونعم المستشار والمعين ، وأحب بمقدار ما تسمح به طبيعته ، ولكن لم يتم الزواج بينه وبين من أحبها ، فقد كانت من أحبها قد ولدت لتكون ربة بيت ، أما هو بحكم مزاجه فقد ولد ليعيش أعزب ، وقد تخلص بذلك من احتمال أعباء الأسرة وهمومها ومتاعبها ، وقد

تزوجت الآنسة سوزان كيرشو التى أحبها جيبون الوزير الشهير نيكر وأنجبت منه الآنسة جيرمان نيكر التى عرفت فى عالم الأدب والتأليف والسياسة باسم مدام دى ستايل .

وسمح له والده بعد أن أمضى سنتين ونصف سنة فى الجيش المرابط بالسفر إلى سويسرة وكان من المشكوك فيه أن تسمح لهموارد والده بالانتقال إلى ما وراء جبال الألب وزيارة إيطاليا ، وظل مصيره معلقاً بيد القدر حيناً من الزمن ، ولكن فى النهاية واتت الظروف وسمح القدر ونفحه والده بمبلغ خمسمائة من الجنيهات ، وفى خريف سنة ١٧٦٤ رأى روما مؤرخها العظيم .

ومات أبوه فى الوقت المناسب ، وترك له من المال ما يكفى ليكون سيد نفسه ومالك وقته ، ففى الثالثة بعد الثلاثين من عمره وجد جيبون نفسه المتصرف فى شؤونه الخاصة ، وأن له من الثروة ما يمكنه من أن يعيش عيشة الأشراف البريطانيين فيلبس أحدث الأزياء ويستمتع بطيبات الحياة وأحاديث المجتمعات الراقية .

وعاش عشر سنوات فى لندن عضو برلمان وشاغل إحدى الوظائف الاسمية ورجل مجتمع ، وفى خلال تلك السنوات العشر أخرج ثلاثة مجلدات من كتابه المأثور ، ثم فقد وظيفته وعجز عن الحصول على غيرها ووجد أن دخله لا يعادل نفقاته فعاد إلى لوزان وأقام فى منزل أحد أصدقائه وكان مشرفاً على بحيرة جنيف ، وفى لوزان عاد ثرياً وأقبلت عليه الشهرة وتألق فى مجتمعها ، وقبل انقضاء عشر سنوات أخرى كان قد أتم كتابه .

ويعجب الإنسان كيف استطاع هذا الرجل الفذ أن يخرج طرفة فنية عظيمة قليلة النظير تدل على عمق الدراسة وطول البحث والمراجعة وهو يشارك فى حياة أهل عصره السياسية والاجتماعية ، ويؤم الأندية ويسهم فى الحياة النيابية ، ولا يحرم نفسه من متع الحياة ، ولعل السبب فى ذلك أن بناءه النفسى لم يكن قائماً على الصراع بين عناصر شخصيته المنوعة ، فقد كان فى حياته جانب للهو والمتعة وجانب آخر للجد والصرامة والعمل الدؤوب ، وكان فيها ناحية للحب والعطف وناحية للشك والسخرية وميل إلى العزلة والانفراد ونزوع إلى الاجتماع والمخالطة ، وكانت هذه الجوانب المختلفة متساندة متآخية يظفر كل منها بمقدار معلوم ونسبة متساوية من عنايته ، وقد ظل ينعم بحياته حتى لفظ آخر أنفاسه .

وكان هذا الذكاء اللماح والعقل الجبار والعبقرية التى لا شك فيها تسكن فى جسم صغير الجرم مستدير بشكل يلفت النظر وربما يثير الضحك ، وفوق هذا الجذع رأس كبير يبرز فيه أنف بين وجنتين عريضتين وأذنين وذقن مركب فوق ذقن آخر منحدر إلى الأسفل ، ولم تكن الغرابة مقصورة على شكله ، بل كانت تشمل كذلك ملبسه ، فقد كان مسرفاً فى التأنق ويكثر من ارتداء المخمل الزاهى اللون .

ولكن كيف تم اللقاء بين جيبون وبين تاريخ الامبراطورية الرومانية ؟

أدركت خالته السيدة كاترين بورتن أن خير ما يتبع مع طفل ناشىء لا يمكنه ضعف بنيته من مجاراة لداته الأطفال فى ألعابهم هو تشجيعه على القراءة والاطلاع ، وكانت تقرأ معه وتناقشه فى شخصيات الياذة هوميروس وقصص ألف ليلة ، وقد أوسع ذلك خياله وأثار فيه منذ نشأته حب الاستطلاع ، وبدأ يظهر وهو فى الثامنة من عمره — كتاب مسلسل عن التاريخ العام ، وقد ظهر الجزء العشرون من هذا الكتاب وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وقد تابع جيبون قراءة هذه الأجزاء المسلسلة فى شغف منذ ظهور الأجزاء الأولى من الكتاب ، ثم قرأ تاريخ هيرودت وحوليات تاسيتوس وكتب مكيافلى ، وقرأ كتباً عن الصين والمكسيك وبيرو ،

وفى إحدى زياراته لأسرة هورز فى ستاورهد ــ وكان والده من أصدقاء الأسرة ــ وجد كتاباً عن الامبراطورية الرومانية ، وقد سجل ذكرياته لهذه الزيارة قائلا « كنت مستغرقاً فى القراءة عن عبور القوط لنهر الدانوب حينما استدعانى رنين الجرس من هذه المتعة الفكرية لتناول طعام الغداء » وقد ظل عبور القوط لنهر الدانوب وما تبعه من الحوادث الهامة مناط تفكيره طوال حياته ، وانتقل من قراءته عن خلفاء قسطنطين إلى تاريخ الشرق وهدته غريزته الناقدة إلى الرجوع للمصادر الأصلية والاستعانة بالخرائط والجداول لتقوم معلوماته على أساس وثيق ، وشق طريقه إلى المراجع الفرنسية واللاتينية ، وخطر له أن يدرس اللغة العربية ، ولكن مدرسه الخاص لم يشجعه على المضى فى هذا السبيل ، ولم يكن قد بلغ من النضج العقلى ما يمكنه من الاعتماد على نفسه فى هذه المحاولة ، فحول اهتمامه إلى دراسة الخلافات المذهبية الدينية ، وكانت عنايته بدراستها من الناحية التاريخية أهم من دراسته لها من الناحية اللاهوتية ، وكان على الدوام معنياً بالتفكير فى المسائل الدينية ، وقد جعلته قراءته المبكرة عن كنيسة الآباء ينطوى لها على الاحترام الشديد ، وتأثر بما قرأه للأسقف بوسويه ، وقد حمله ذلك على نبذ المذهب البروتستانتى والأخذ بالمذهب الكاثوليكى ، وكان هذا هو السبب الرئيسى لخروجه من جامعة أكسفورد وارساله إلى لوزان ، على أنه لم يثبت على المذهب الكاثوليكى ، فبعد مضى ثمانية عشر شهراً على دخوله فى هذا المذهب استطاع مدرسه السويسرى أن يقنعه بتركه وحمله على العودة إلى المذهب البروتستانتى ، وكان الأثر الباقى لهذا التردد بين المذهبين الدينيين اطلاعه الواسع على دقائق الخلافات الدينية وقدرته على استيعاب وجهات النظر المختلفة فيها ، ويبدو ذلك واضحاً فى كتابه العظيم ، ويؤكد دارسو حياة جيبون أن هناك علاقة أكيدة بين هذه الأزمة المذهبية الدينية التى مر بها جيبون وبين موقفه العام من الدين المنطوى على الجمع بين السخرية المتعالية المترفقة والاكبار والتقدير ، ويقول يونج[1] ــ أحد من كتبوا عن حياة جيبون ــ « كان يستطيع جيبون فى جميع الأوقات أن يقر قول العلامة بيليه « إنى بروتستانتى لأنى أعارض الأديان جميعها » وقد استحثه مرة أحد أصدقائه على أن يصارحه بعقيدته التى استقر رأيه عليها فأكد له جيبون « أنه يدين بمذهب الاعتقاد بوجود الله ولكنه لا يحفل بالحياة الأخرى » ، وكان جيبون يرى أن المذهب البروتستانتى بتعويله على رأى الإنسان الخاص قد كفل الانتصار النهائى للعقل ، ولكن مما يحد من قوة هذا الانتصار ويوهنها الشك فى كون الديانة القائمة على العقل تكفى لاشباع العواطف والسيطرة على سلوك الناس العاديين :

وبعد أن اجتاز جيبون أزمة الجدل الدينى أقبل بكليته على الدراسة وأخذ فى تنظيم طرائق اطلاعه وقراءته وغاص فى لجج الأدب الرومانى ، وكان يجد متعة فى تنويع دراسته بالاطلاع على المنطق والرياضة والقانون الدولى ، وأخذ يعالج الكتابة بالفرنسية واللاتينية ، وكتب فى تلك الفترة بعض الفصول الشبيهة بالفصول التى تظهر فى المجلات المعنية بالدراسات الكلاسيكية ، وكان يلهو فى بعض الأحيان بنظم شعر لاتينى ، وفى أثناء إقامة جيبون فى لوزان حضر فولتير إلى سويسرة وأقام فى ليه دليس بمقاطعة جنيف ، وقدم جيبون للكاتب الكبير فلم يحفل به ، وتلقاه بغير اكتراث مما جعله يتحقق أن فولتير ليس من العظمة بالمكانة التى سبق له أن وصفه بها ، على أنه فى تفكيره واتجاهاته كان أقرب إلى فولتير منه إلى روسو ، وكان أهم من لقائه لفولتير قراءته لمنتسكيه وبسكال ، وبلغ اعجابه ببسكال إلى حد أنه كان يقرأ كل سنة رسائله الإقليمية

(١) صفحة ١٣ من كتاب ج . م. يونج عن حياة جيبون
Gibbon. By G. M. Young.

كما أفاد بوجه خاص من اطلاعه على كتاب روح القوانين لمنتسكييه ، وقد كان جيبون أول مؤرخ أفاد من رأى منتسكييه فى تقدير العوامل غير الشخصية فى حياة الأمم ، ولمنتسكييه فضل التنبيه على ما أصبح معروفاً اليوم ، وهو أن الأسباب المؤثرة فى التاريخ ليست جميعها قائمة على إرادة الأفراد وحكمة الصالحين وبراعة الأشرار ، وإنما لملابسات الظروف والجو والثقافة الملائمة لحالة البيئة أثرها الملحوظ .

ويحدثنا جيبون بأنه كان « يعرف بالتجربة من مطالع شبابه أنه تطلع إلى أن يكون مؤرخاً » ويصف لنا قيام فكرة كتاب تاريخ الامبراطورية الرومانية بقوله « أول ما خطرت لى فكرة كتابة تداعى روما وسقوطها كنت فى يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٧٦٤ جالساً بين أطلال الكابيتول أشاهد الرهبان العراة الأقدام وهم يتغنون أناشيد صلاة المساء وقد استغرقت فى التفكير » .

ويصف لنا وقت انتهائه من كتابة آخر فصول كتابه بقوله « فى نهاية اليوم السابع بعد العشرين سنة ١٧٨٧ أو على الأصح فى مسائه بين الساعة الحادية عشرة والساعة الثانية عشرة كتبت الأسطر الأخيرة لآخر صفحة فى جوسق حديقة منزلى ، وبعد أن وضعت القلم قمت بجولات عدة فى مظلة أو فى طريق تظلله أشجار الطلح يشرف على منظر الضاحية والبحيرة والجبال ، وكان الهواء سجسجاً ، والسماء صافية الأديم ، وقرص القمر الفضى ينعكس فى المياه ، وقد خيم الصمت على الطبيعة ، ولن أخفى أول مشاعر الفرح والارتياح التى خالجت نفسى لاسترداد حريتى وربما لتوطد شهرتى ، ولكن سرعان ما استذلت كبريائى وغشى عقلى حزن وقور ؛ باعثه أننى قد ودعت الوداع الأخير رفيقاً لى محمود العشرة ، وأنه مهما يكن المصير الذى ينتظر كتابى فى المستقبل فإن حياة المؤرخ لا محالة قصيرة وغير مستقرة » .

وبين هذين الفترتين ، فترة التفكير فى كتابة التاريخ وفترة الانتهاء من كتابته يتجلى تأثير عناصر شخصية جيبون التى جعلت كتابه يبلغ المكانة العالية بين الطرف التاريخية وينال الشهرة الواسعة التى لم تبل بعد جدتها ولم يندثر أثرها ، وهى قوة التصور وسعة الخيال والمعرفة الغزيرة والأسلوب الفخم والقدرة على مواصلة بذل الجهد ، وقد قرأ مؤلفه طبقات متوالية من المؤرخين وأعلنوا جميعهم تقديرهم له واعجابهم به ، وقد قال عن نفسه بعد ظهور كتابه وما ظفر به من تقدير « لقد منحنى اسما وأبلغنى مكانة وأعطانى شهادة ما كنت لأظفر بها وأصير مستحقاً لها لولاه » ولا نزاع فى أن كتابه من الأبنية الفكرية الضخمة وقد عده الكثيرون الجسر القائم بين العالم القديم والعالم الحديث .

وقد مات جيبون سنة ١٧٩٤ فى إبان اشتداد الثورة الفرنسية فلم يثر موته اهتماماً يذكر فقد كانت الثورة التى لم يكن مؤرخنا الذى تعود مراقبة الحوادث فى هدوء راضياً عنها قد شغلت الخواطر واستأثرت باهتمامات الناس .

وكتاب جيبون عن تداعى الإمبراطورية الرومانية وسقوطها من الكتب الضخمة التى تبلغ صفحاتها الآلاف على اختلاف الطبعات والأحجام ، ولكن هذا الكتاب على ضخامته واتساع نطاقه وترامى آفاقه ليس من الكتب التى تبعث فى قارئها الضيق والملل ، وإنما هو من الكتب التى تحرك اهتمام القارئ وتثير طلعته وتشحذ شهيته للقراءة ، ويرجع ذلك إلى الحيوية المنبثة فى أجزاء الكتاب والحرارة السارية بين سطوره ، وجلال أسلوبه وبراعة تصويره ، وقد أشار جيبون فى مقدمة الكتاب إلى أن قسم فترة القرون الثلاثة عشر التى استغرقها تداعى الإمبراطورية الرومانية وسقوطها إلى ثلاث مراحل ، المرحلة الأولى يمكن تتبع آثارها منذ عهد تراجان وانطونينوس بيوس ومرقس أورليوس حيث

بلغت الملكية الرومانية أقصى قوتها واكتمل نضجها وبدأت فى الانحدار وأخذ يعتورها النقصان ، وهى تمتد إلى الوقت الذى أخذت فيه القبائل الألمانية الهمجية — وهم سلف معظم الدول الأوربية الحديثة — تعمل على هدم بناء الدولة الرومانية الغربية وتمزيق أوصالها ، وقد استوفت هذه الثورة الغريبة الشأن التى جعلت روما خاضعة لقوة الغازى القوطى مهمتها حوالى أوائل القرن السادس الميلادى .

والمرحلة الثانية من مراحل سقوط الإمبراطورية الرومانية يمكن أن تبدأ بحكم جستنيان الذى استطاع بانتصاراته وبما سنه من قوانين أن يعيد للإمبراطورية الشرقية قوتها إلى حين من الزمن ويعيد لها مؤقتاً مجدها السالف وبهاءها القديم ، وهى تشمل غزو اللومبارديين لإيطاليا وفتح العرب للولايات الرومانية الآسيوية والإفريقية وثورة الروم على أمرائهم الضعاف فى القسطنطينية وارتفاع شأن شارلمان أو الإمبراطورية الألمانية فى الغرب .

والمرحلة الثالثة وهى المرحلة الأخيرة والأطول عهداً فقد استغرقت ستة قرون ونصف قرن وهى تبدأ من إحياء الإمبراطورية الغربية إلى استيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية والقضاء على الأمراء الضعاف الذين استمروا يتقلدون ألقاب قيصر وأغسطس بعد أن تقلصت ممتلكاتهم وأصبحت مقصورة على المدينة ، وكان جيبون يرى أن الكاتب الذى يعرض لهذه الفترة يجد نفسه مضطراً إلى معرفة تاريخ الغزوات الصليبية بوجه عام ومدى تأثيرها فى اسقاط الإمبراطورية الإغريقية ولا يستطيع أن يكبح جماح ميله إلى استطلاع حالة روما خلال ظلام العصور الوسطى والفوضى التى سادت خلالها .

وعند جيبون أن تاريخ أوروبا — بل فى الواقع تاريخ العالم — من عهد مرقس أورليوس إلى سقوط الإمبراطورية الغربية فى سنة ٤٧٦ يبدو فى صورة وقوع كارثة كبرى ونكوص على الأعقاب لم يشمل خطبه القوانين والنظم والحضارة الرومانية وحدها بل يشمل أمن العالم وثقافة أهم أجزاء الجنس البشرى وسعادتهم ، وهو يقول فى ذلك « إذا طلب إلى أى إنسان أن يعين الفترة فى تاريخ العالم التى كانت فيها أحوال الجنس البشرى أسعد ما تكون وأرغد ما تكون فإنه لا يتردد فى ذكر تلك الفترة الممتدة من موت دوميشيان إلى اعتلاء كومودس عرش الإمبراطورية » .

وهو من الحين إلى الحين يرجع فى تاريخه إلى هذا العصر الذهبى ويعتبره المعيار المطلق الذى يعاير به انحطاط الأزمنة التى يصفها ، وهو يقبل النظام الرومانى ويعجب بروحه ويكبر شأنها ، ويرى أن عبقرية روما كانت تتمثل فى التسامح والاعتدال ورعاية القانون والنظام ومجافاة التعصب ، وأن حكمة الفلاسفة الرومان وسجاحة خلق الحكام الرومانيين وعدالة قضاتهم كانت تجنب العالم أخطار الحرب وتقيه فظائع القسوة والعنف ، وأن القوانين الرومانية هى الأساس الذى يقوم عليه المجتمع المتمدن فى هذا العالم وأن الانحراف عنه مجلبة للكوارث .

وقد كانت النتيجة المنطقية لهذا الموقف الذى اتخذه جيبون من الحضارة الرومانية أنه لم يعد قادراً على أن يتناول فى رفق أو يقف موقف المحايد المشاهد أمام القوى التى كانت تناهض الدولة الرومانية برغم أنها كانت تتضمن مبادئ جديدة وبرغم أن القبائل الهمجية التى كانت تغير على أطراف الإمبراطورية وتنتقصها كانت تمثل طاقة جديدة من النشاط الإنسانى ، ولذلك لم يستطع جيبون أن ينصف نمو سلطة الكنيسة ونشوء النظام الأكليروسى فى أوروبا على أنقاض العالم الرومانى الذى أوهنه الضعف وأخذ فى الانحلال ، وكان الموضوع الذى قصر عليه جيبون جهده هو موضوع انحلال

الإمبراطورية وسقوطها ، وقد اتبع طريقة الفنانين البارعين فأبى أن يدخل فى موضوعه ما يخالف اتجاهه ولا يلائم النغمة السارية فى نواحيه المترددة فى مختلف أجزائه ، ولا نزاع فى أن اتباع جيبون لهذه الطريقة واصراره عليها أفاضا على كتابه روعة وجلالا ، وأكسبا تنسيق حوادثه وحدة فنية ، وهذا هو جوهر الطرف الأدبية الممتازة سواء كانت شعراً قصصياً حماسياً أو رواية تمثيلية أو قصة ، ولذلك غير عجيب أن يكون الأثر الذى يتركه فى النفس قراءة كتاب جيبون شبيهاً بالأثر الذى تحدثه قراءة أى طرفة من الطرف الأدبية الممتازة ، فهو لا يثير العقل وحده وإنما يثير كذلك الخيال ، وبعد أن ينتهى الإنسان من قراءته تتراءى له العظمة الإنسانية فى سرعة زوالها والسقوط المحتوم الذى لا مفر منه ولا سبيل لاتقائه .

وقد يخطر للإنسان أن جيبون حينما سمى كتابه تداعى الإمبراطورية الرومانية وسقوطها قد ضمن كتابه تحليلا لأسباب وقوع هذه الكارثة ، وكان المنتظر بطبيعة الحال أن يصف العلة ويشخص الداء الذى كان سبب هلاك الإمبراطورية ، والمؤرخون المحدثون لو أنهم عرضوا لمثل هذا الموضوع لوجهوا جانباً كبيراً من اهتمامهم إلى هذه الناحية ، ولكن جيبون لم يسلك هذا السبيل ، وهو قبل كل شىء وصاف بارع ومصور قليل النظير ، ومعنى ذلك أنه لا يشغل باله كثيراً بدراسة القوى التحتية التى تعمل فى الخفاء ، وإنما يوكل اهتمامه بما هو ظاهر وما هو ملموس وما هو باد على السطح ، فهو يقدم لنا دراما عظيمة للقراءة يتحرك فيها الأبطال ويقومون بتمثيل أدوارهم ، ولكن ليست هناك محاولة لبيان سبب اتجاه الدراما فى الوجهة التى سلكتها أو لبيان المحركات الخفية التى أحدثت حركاتها وسيطرت على اتجاهاتها .

وليس معنى هذا أن كتاب جيبون ليس له مبدأ عام يسترشد به ويرجع إليه ، فان الأمر على نقيض ذلك ، وهناك مبادئ عدة تتضمنها نصوص كتابه ، ولكن ليس هناك تحليل واف واضح الأسباب للحقائق التى يصفها ، فهو يصف تدفق مجرى التاريخ العظيم وتياراته التى تختلط بعضها ببعض وصراع القساوسة والمحاربين والمشرعين دون أن يوضح القوة الديناميكية التى تحرك ذلك كله ، فهو يكتفى بتحريك الدمى ويترك للكتاب الذين يجيئون بعده النفاذ وراء المشاهد المتوالية وكشف القوانين المسيطرة على سير الحوادث واتجاهاتها

ويبدو أنه حينما بدأ كتابه لم يكن عنده فكرة واضحة عن المبادئ العامة التى يرجع إليها ويستند عليها ، فهو فى الفصل الثانى من الكتاب يعزو النكبات التى حلت بالإمبراطورية إلى طول عهد السلام الذى نعمت به واطراد الحكم على نسق واحد الذى جعل مستويات الناس متقاربة وأخمد نيران العبقرية وأضعف الروح الحربية ، وفى الفصل السابع وقد اتسعت أمامه آفاق البحث يتبسط فى شرح هذه الفكرة وينميها ويذهب إلى أن الرومان بنوا امبراطوريتهم بقوة عبقريتهم الحربية وسداد طريقتهم فى الحكم وتصريف أمور الدولة ، وهى فضائل اكتسبوها بمعاناه التجارب والصبر على الفقر والحرمان ، ولكن نجاحهم جعلهم يخالطون صنوفاً شتى من البشر ، ويمتزجون بملايين الناس فى المقاطعات والولايات المتخلفة ، ولذلك فقدوا الروح التى كانت باعث نهوضهم وتقاعدوا عن مباشرة المهن والصناعات وتراخوا فى المحافظة على النظام ، ولم تعد لهم طاقة على الصمود فى ميدان الجهاد ، وعجزوا عن صد غارات القبائل الهمجية على حدود دولتهم ، وموجز القول أن أمة من الأقزام خلفت أمة من العمالقة .

وفى الفصل السابع بعد العشرين يضرب على نغمة جديدة ويؤكد أن الترف والتخنث الذى تبعه هما سبب سقوط الإمبراطورية ويقول « إن الفساد الذى نشأ فى البلاط وشاع فى المدن نفث السموم فى معسكرات الفيالق » ويفهم من ذلك أن التخاذل والاحجام وعدم

القدرة على الثبات فى مواجهة الشدائد التى أصابت الفيالق الرومانية والتى كان منشؤها الترف كانت السبب المباشر فى تدهور الإمبراطورية وسقوطها ، ولكنه فى الوقت نفسه يؤكد أن الترف والتخنث كانا نتيجة لا سبباً ، ويقول « إن الإسراف الجنونى الذى يسود فى فوضى الخراب والتدمير أو فى حالات الحصار يمكن أن يفسر تقدم الترف خلال الكوارث والأحداث المفزعة فى الأمم المشرفة على السقوط » وواضح أن المنطق هنا غير سليم . لأن الترف لا يمكن أن يكون سبباً ونتيجة فى الوقت نفسه ، فاذا كان سبب سقوط روما فليس صحيحاً وصفه باعتباره نتيجة للكارثة وعرضاً من أعراض السقوط والانحلال .

وفى الفصل الخامس بعد الثلاثين من الكتاب يسترسل فى تحليله ، وهو فى هذه المناسبة يرجع إلى نظرية طالما أغفلها — وهى التفسير الاجتماعى الاقتصادى ويشير إلى فقدان العدالة فى توزيع الضرائب والضيق الذى كان يعانيه الشعب من جراء قسوة الأغنياء المياسير الذين كانوا يحاولون القاء ما يجب عليهم تحمله من النفقات والأعباء على كاهل الشعب الفقير ، وقد جعل ذلك أفراد الأمة الرومانية يرفضون القيام بواجبات المواطن الرومانى ويتنصلون من وصفهم بأنهم من رعايا الدولة الرومانية وهى الصفة التى كان يعتز بها أفراد الأمة الرومانية قبل ذلك ، وعلق فى هذا الفصل أهمية كبيرة على التنصل من التبعية الرومانية ، وعدها عاملا أشد خطورة من الانهيار الذى حل بالفيالق ، ويضيف إلى ذلك قوله « لو أن جموع القبائل الهمجية أبيدت دفعة واحدة لما أغنى ذلك شيئاً عن الإمبراطورية ولما رد عليها قوتها وسابق مكانتها » .

وفى الفصل الثامن بعد الثلاثين يستكمل تحليله لأسباب السقوط تحت عنوان « ملحوظات عامة على سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب » وحينما بلغ هذا الفصل كان قد ألقى نظرة شاملة على اتجاه الأحداث فى كليتها واستبانت له نتائجها المحتومة فاقتنع بأن السبب الأصيل فى وقوع الكارثة مصدره قانون لا سبيل إلى رد حكمه لا تتابع الأحداث ، ويقول فى ذلك « إن سقوط روما نتيجة طبيعية محتومة للعظمة المفرطة التى تجاوزت الحدود ، وقد أنضج الرخاء أسباب التحلل والفناء ، وضاعف امتداد الإمبراطورية بواعث الهدم والتدمير ، وحينما أزال الزمن أو الحوادث العارضة الأسناد المصطنعة أخذ البناء الشامخ يرزح تحت أثقال حمله الباهظ ، والأولى بنا أن تتولانا الدهشة من بقاء الإمبراطورية زمناً طويلا بدلا من أن نتساءل عن أسباب اضمحلالها وسقوطها » .

وهذه الكلمات حافلة بالتفكير الموحى ، وتكاد تكون صدى لرأى منتسكييه الذى أنماه فيما كتبه عن « عظمة الرومان وانحطاطهم » وقد اطلع عليه جيبون .

وقول جيبون « إن الرخاء أنضج أسباب التحلل والفناء » ينطوى على تشبيه النظم السياسية والدول بالبنية الحية ، فبذور الفساد كانت كامنة ولكنها كانت تنتظر اشراق شمس الرخاء لتؤثر تأثيرها الهدام ، ومعنى ذلك أن جيبون كان يرى شبهاً بين حياة الدول وحياة البنية الحية ، وكما أن البنية الحية تحمل بذور فنائها فكذلك الدول والجمهوريات تحمل فى طيها العيوب والمساوئ التى تنتظر أوقات الفساد والاضطراب والتخلف لتظهر تأثيرها وتبث سمومها ، وهذه النظرية من أهم النظريات وأصدقها فى تعليل سقوط الإمبراطورية الرومانية .

على أن فرط اعتماد المؤرخين على أمثال هذه النظريات لا يخلو من خطر ، فقد تروق هذه النظريات العقل المطبوع على التفكير الفلسفى حينما يتأمل أحداث التاريخ ، ولكن المؤرخ الخالص يهمه البحث عن الأسباب الخاصة قبل كل شىء ، ونظرية الانحطاط الطبيعى المحتوم التى رددها جيبون وقبله منتسكييه تمثل

آخر ما انتهى إليه القرن الثامن عشر فى تعليل سقوط الإمبراطورية الرومانية ، ولكن الأسباب الفردية التى أحصاها جيبون أهم منها فى نظر المؤرخ المحض ، ففى استطاعته أن يراجعها ويبحثها ويناقشها أو يستكملها ويتبسط فى شرحها ، أما الأسباب النظرية الأخرى فهى تتصل بمناطق أخرى من البحث من وراء اختصاصه .

والأسباب التى أحصاها جيبون يمكن أن تكون مصاحبات أو أعراضاً لأمراض كانت كامنة فى كيان الدولة الرومانية ، وربما كان جيبون غير عالم بتأثير العوامل الاقتصادية فى أحداث الكارثة وخراب الدولة — وهى مسألة قد عنى بها المؤرخون المحدثون إلى حد كبير — ومع ذلك فان المبادئ العامة التى أكد جيبون أهميتها كانت المرحلة التى انتقل منها الباحثون بعده إلى التماس أسباب أخرى واستيفاء بحث علل سقوط الإمبراطورية .

وهناك مسألة عنى بها جيبون عناية كبيرة وأدى بها خدمة كبيرة للباحثين الذين تناولوا تاريخ الدولة الرومانية بعده ، وهى الدور الذى لعبته الديانة المسيحية فى هذه الدراما العظيمة ، ومن أقواله فى هذا الصدد فى ترجمته الذاتية « لما كنت أعتقد — وما ازال على هذا الاعتقاد — أن انتشار الإنجيل وانتصار الكنيسة متصلان اتصالا لا انفصام له بسقوط الملكية الرومانية لذلك بحثت أسباب تلك الثورة ونتائجها ووازنت بين ما كتبه المسيحيون أنفسهم وبين نظرات الصراحة أو العداء التى ألقاها الوثنيون على تلك الفرق والطوائف الناشئة » .

فهل معنى ذلك أن جيبون كان يلحق الديانة المسيحية بالعوامل التى عملت على هدم بناء الدولة الرومانية ؟

يرى الأستاذ المؤرخ الكبير بيورى (Bury) أن هذا هو رأى جيبون ، بل يذهب إلى أن جيبون كان يعده فى طليعة أسباب سقوط الامبراطورية الرومانية .

ويرى الأستاذ بلاك فى كتابه عن[1] « فن التاريخ » أن ما ذهب إليه بيورى مقبول ومتفق مع الروح التى كان يكتب بها جيبون وما كان يستهدفه ، ولكن الذين يقبلون هذا الرأى يجدون صعوبة فى إيراد أى فقرة من كتاب تداعى الإمبراطورية الرومانية يستخلص منها تأييد هذه الفكرة ، ويقول الأستاذ بلاك « إن الجملة التى بنى بيورى عليها حكمه هى قول جيبون « لقد وصفت انتصار الهمجية والدين » وأننا حين نرجع إلى قراءة هذا النص فى الأصل يتضح لنا أن جيبون كان يقصد أنه تتبع تاريخ غزوات القوط وظهور الكنيسة » .

على أن استعمال جيبون لكلمة « انتصار » هنا يكشف لنا جانباً من عدائه العميق للمسيحية الذى يمكن أن نلحظه فى كتابه وراء اتخاذه سمت المؤرخ المحايد والمشاهد النزيه للحوادث ، وهو بوجه عام يشارك المفكرين العقليين فى القرن الثامن عشر فى موقفهم من الدين عامة والديانة المسيحية خاصـــة واعتقادهم أن الدين يقوم على خرافات نمت وتجمعت فى عصر الهمجية وأنتجت التعصب الأعمى وعدم التسامح وأسباب الفرقة والخلاف ، وتاريخ جيبون مشبع بهذه الروح العدائية نحو المسيحية بوجه خاص ولكنه يسترها بالسخرية اللاذعة والتهكم القاسى ، على أن هناك فرقاً بين عدم تقدير جيبون للديانة المسيحية وبين اعتبارها أهم العوامل فى إسقاط الإمبراطورية الرومانية ، وما يؤكده جيبون فى الواقع هو أن الوثنيين كانوا يعزون الكوارث التى تلم بالإمبراطورية وتهدد كيانها إلى ديانة المسيح وإلى قسطنطين ، والدليل على أن جيبون كان لا يشاركهم فى هذا الرأى واضح من ذهابه إلى أن المسيحية حتى فى أزمنة الفساد علمت القبائل الهمجية العدالة والرحمة والصدق والأمانة وساعدت العواطف الإنسانية التى بثتها على تلطيف فظائع الحرب ، والتقليل من قسوة

(١) صفحة ١٧٠ من كتاب « فن التاريخ » للأستاذ ج . ب. بلاك

الغزو ، والديانة التى تحدث مثل هذا التأثير لا يمكن اعتبارها مجرد عامل من عوامل الهدم والتدمير .

وقد وردت أكثر آرائه اتزاناً عن المسيحية فى التعليق الذى أضافه للفصل الثامن بعد الثلاثين من كتابه وأقصد به التعليق الذى جعل عنوانه « ملحوظات عامة على سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب » وهو يقول ضمن هذا التعليق « لما كانت السعادة المنتظرة فى الحياة الأخرى هى الغاية الكبرى للأديان فاننا قد نسمع دون أن نعجب ودون رغبة فى تشويه السمعة أن ادخال المسيحية أو على الأقل اساءة استعمالها كان له بعض التأثير فى انحطاط الدولة الرومانية وسقوطها ، فقد نجح رجال الأكليروس فى التبشير بآراء تدعو إلى الصبر وايثار الجبن ، ولم تشجع الفضائل التى تبعث على النشاط فى المجتمع ، ودفنت آخر بقايا الروح الحربية فى الأديرة ، وجانب كبير من الثروة العامة والخاصة وقف لمطالب البر والورع المموهة ، ورواتب الجند كانت توزع فى اسراف على جماهير من الرجال والنساء لا خير فيهم وليس فى استطاعتهم سوى أن يبشروا بمزايا الزهد والتقشف وفضائل العفة والطهارة ، والإيمان والحماسة والفضول ونوازع الحقد والضغينة الأكثر أرضية أشعلت نيران الخلاف اللاهوتى ، وحيرت الكنيسة بل حتى الدولة الخلافات الدينية التى كان النزاع حولها فى بعض الأحيان دموياً ودائماً لا تهدأ حدته ، وتحول اهتمام الأباطرة من المعسكرات إلى المجامع الدينية وتعرض العالم الرومانى لضغط أنواع جديدة من الطغيان وأصبحت الطوائف المضطهدة الأعداء السريين لبلادهم»

وهذا رأى جيبون فى الجانب السلبى من تأثير المسيحية ، ولكنه يحرص على التوازن ويذكر فى أعقابه مزايا الجانب الإيجابى فى تأثيرها فيقول « إن الروح الحزبية مهما تكن ضارة أو سخيفة فإنها عامل اتحاد ووحدة كما أنها عامل خلاف وفرقة ، وكان الأساقفة من ألف وثمانى مائة منبر تقرر فى الأذهان واجب الطاعة العمياء للحاكم القانونى المعترف به وكانت اجتماعاتهم المتكررة ومراسلاتهم الدائمة تحفظ الاتصال بين الكنائس النائية ، والاتحاد الروحى بين الكاثوليك قوّى الطبيعة الإنجيلية المحبة للخير ولو أنه حفظها فى حدود ضيقة ، وتوانى الرهبان المقدس تلقاه بخشوع وورع أهل عصر تمكنت منهم العبودية والتخنث ، ولكن إذا كان الاعتقاد بالخرافات لم يهيء تراجعاً لائقاً فان العيوب نفسها والرذائل كانت ستغرى الرومان غير الجديرين بالاحترام بأن ينحرفوا عن المستوى اللائق بالجمهورية مسوقين إلى ذلك ببواعث أكثر ضعة واسفافاً ، والأوامر الدينية التى ترضى الميول الطبيعية لأتباع الدين وتضفى عليها القداسة يسهل اطاعتها ، ولكن التأثير النقى الخالص للمسيحية يمكن أن نتتبعه فى تأثيرها الحسن — وان لم يكن كاملا — فى قبائل الشمال الهمجية التى اعتنقتها ، وإذا كان سقوط الدولة الرومانية قد عجل به دخول قسطنطين فى المسيحية فان ديانته المنتصرة كسرت حدة السقوط ورققت طبيعة الغزاة الوحشية » .

وواضح من ذلك أن جيبون لم يكن متحاملا التحامل كله على المسيحية ، ولم يكن غافلا عن بعض مزاياها ، وقد أدرك أن روح الديانة المسيحية كانت معادية لبناء المجتمع الرومانى ، ولذلك أثبتت أنها كانت عاملا من عوامل اضعافه حينما أصبحت ديانة الدولة ، ولكن عبقرية المسيحية البناءة استطاعت حماية عالم العصر الوسيط من التصدع فى خلال عهد الانحطاط ، وبذلك أنقذت الإنسانية من أسوأ أنواع الشر حينما انهار البناء ووقعت الكارثة .

وفضلا عن ذلك فانه إذا كان ما ذهب إليه جيبون صحيحاً وهو أن انحدار روما وسقوطها كان نتيجة عمل قانون من قوانين الطبيعة — وهو التأثير الطبيعى المحتوم للعظمة التى تجاوزت الحد — فاننا لا نستطيع فى هذه الحالة أن نعزو وقوع الكارثة إلى القبائل الهمجية أو الديانة المسيحية ، وربما كانت أخطر تهمة يوجهها

جيبون للمسيحيين هى أنهم خربوا الكثير من بدائع فن البناء القديم ليشيدوا بها كنائسهم ، ولكن مما يلطف من حدة هذا الاتهام أن معظم التخريب الذى حدث كان أثناء الخلافات العائلية التى وقعت فى العصور الوسطى .

أسلوب الكتاب ونماذج منه

مما هو جدير بالملاحظة أن جيبون فى ختام ملحوظاته على موضوع سقوط روما وبعدأن استوفى فحص جميع الحقائق وجلّى نتائج الحوادث استرسل فى لون من ألوان التفكير جعله ينسى ويسامح كل الجرائم التى أساءت إلى الإمبراطورية الرومانية ، وذلك حيث يقول « قد نطمئن إلى الاعتقاد السار بأن كل عصر من عصور الدنيا قد زاد — وما يزال يزيد — ثروة العالم الحقيقية وسعادة الجنس البشرى ومعرفته وربما فضيلته كذلك » ومعنى ذلك أن التاريخ لا يسجل التقهقر باعتباره الخاصة الوحيدة لأى عصر من العصور ، وإنما يسجل كذلك إلى جانب التقهقر التقدم ، والتقدم بوجه عام أكثر استبانة ووضوحاً .

وقد كان جيبون بطبيعته ساخراً متشككاً ، ولو لم يكن كذلك لعلمته السخرية مراقبته لتاريخ العالم خلال مدة تجاوزت الألف العام ، وكانت له فى كتابه تأملات من الحين إلى الحين يسترسل فيها عقب سرده لأعمال بعض « الدمى » التى تتحرك فى مسرح التاريخ ، من ذلك قوله « إن مخلوقاً له طبيعة الإنسان وقد رزق ملكات ومواهب مثل مواهب الإنسان وملكاته ولكنه قدر له مدى للوجود أطول من المدى المقدر للإنسان لا محيص له من أن يلقى ابتسامة رثاء واحتقار على جرائم الطموح الإنسانى وسخافاته ، ذلك الطموح الشديد الكلف فى المجال الضيق بالتعلق بالاستمتاع غير المضمون والسريع الزوال ، وهكذا توسع التجربة التاريخية آفاق نظرتنا العقلية وتسمو بها ، ففى فصل استغرقت كتابته بضعة أيام واستلزمت قراءته بضع ساعات طويت صفحات ستمائة سنة ومرت واختصرت مدة حياة أو عهد حكم إلى دقائق سريعة المر ، فالقبر إلى جانب العرش ، ونجاح المجرم الأثيم سرعان ما تبعه فقدان الغنيمة ، وعقلنا الخالد يبقى حياً ويحتقر الستين طيفاً من أطياف الملوك الذين مروا أمام عيوننا ولم يكادوا يبقون فى ذاكرتنا » .

ويمكن أن يتبين الإنسان خلال تصوير جيبون لمختلف الشخصيات التى يحفل بها تاريخه قدرته الفائقة على توضيح معالم الشخصية ، وهو قليل النظير فى التصوير الذى ينطوى على جانب من السخرية ، فمن وصفه للإمبراطور جالينوس ابن الإمبراطور فاليريان « فى كل فن حاوله مكنته عبقريته الناشطة من النجاح ، ولكن لما كانت عبقريته مجردة من قدرة صحة الحكم على الأشياء فقد حاول كل فن إلا الفنين المهمين وهما فن الحرب وفن الحكم ، وقد كان يجيد طائفة من العلوم العجيبة العديمة النفع وكان خطيباً حاضر البديهة وشاعراً بليغاً وبستانياً بارعاً وطاهياً مجيداً وأميراً خليقاً بالاحتقار » .

وفى تصويره لأخلاق يوحنا الكابادوسى يقول « كان فساد قلبه يعادل قوة فهمه وادراكه ، وبالرغم من أنه كان متهماً بالسحر والتعلق بالخرافات الوثنية فقد كان يبدو غير خائف من الله أو لوم الإنسان ، وقد قام طموحه إلى المجد على جثث الآلاف وإفقار الملايين وتخريب المدن وإقفار الأقاليم » .

وكثيراً ما كان يضمن حكمه على الأشخاص كلمات جامعة موجزة مثل قوله عن الإمبراطور قسطنطين كوبرونيموس « كان حكمه مذبحة طويلة الأمد لكل ما هو نبيل ومقدس وبرئ فى الإمبراطورية » .

والعبقرية والبراعة السياسية والنزعة الإنسانية والبطولة والإقدام والعفة والنزاهة وما إلى ذلك من المواهب اللامعة والمناقب الحسان لا تنى تثير اعجابه فلا

يغفل الإشارة إليها والإشادة بها ، كما أن الرذيلة والتواء النفس والقسوة والوحشية والخيانة لا تفلت من إصدار الحكم عليها وإدانتها ، فهو يقف من شخصيات تاريخه موقف القاضي العادل يصوغ عقود المدح ويلتمس الأعذار أو يرسل قوارص اللوم وقواتل النقدات .

من أمثلة ذلك وصفه للقائد العظيم بيليزاريوس الذى نبغ فى عهد جستنيان « كان بيليزاريوس عفيف الإزار فيه رزانة وركانة ، ففى انطلاق حياة الحرب والجهاد لم يستطع أحد أن يفخر بأنه رآه صريع النبيذ ، وكانت تقدم له أجمل الجوارى من أسيرات القوط والوندال ولكنه كان يعرض عن محاسنهن وفتنتهن ، ولم يعرف قط عن زوج أنطونينا أنه أهدر حرمة الأمانة الزوجية ؛ والذين شاهدوه فى الحرب والمؤرخون الذين استقصوا أخبار مواقفه المأثورة يشهدون أنه كان شجاعاً بغير طيش ولا تهور وحازماً بغير جبن ولا احجام وكان يسارع إلى الهجوم أو يتأنى فيه بحسب مستلزمات الساعة وطبيعة الموقف . . . » .

واكتفى بهذا القدر من بيان طريقة جيبون فى وزن شخصياته وتحليل أخلاقهم ومواقفهم .

ومن الصور الفائقة التى لا يمكن أن تبرح خيال قارئه تصويره لشخصية امبروز وجوليان المشهور بجوليان المرتد وستليخو وليو الرابع وباسيل الأول .

والواقع أن جيبون ليس فيلسوفاً بالمعنى الدقيق للكلمة ، وليس عنده شىء ليقوله عن المعنى النهائى للحوادث التى يصفها أو الغاية المستسرة وراء الحركة التاريخية بوجه عام ، ومشاهدته لحوادث الفترة الطويلة التى رصد جهده لتدوين أخبارها — وهى كسائر الأحداث التى تبرز على مسرح الدنيا مزيج من الملهاة والمأساة — كانت تغريه بارسال الأحكام الأدبية والتأملات الأخلاقية ، فهو من الحين إلى الحين يشير إلى الحماقات والصغائر التى يتورط فيها البشر ، وفى بعض الأحيان يتملكه شيطان السخرية اللاذعة ، ولكن ذلك كله لم يخرج عن كونه ملحوظات يبعثها وقع الحوادث التى يصفها فى نفسه الحساسة ، وهدف جيبون قبل كل شىء هو كتابة التاريخ كما يجب ووصف الماضى وقد حدد غايته فى قوله « أريد أن أقدم للخالف تصويراً وافياً عادلا لكل ما يمكن مدحه وكل ما يمكن أن يلتمس له العذر وكل ما يمكن أن يوجه إليه النقد » أما البحث عن المعنى الكامن وراء الحوادث العارضة المتقلبة وتفسير الحركة التاريخية فإنه يتركه لقارئ كتابه ليستخلص منه ما يشاء من النظريات ويستخرج منه ما يروقه من العبر والأحكام .

وبالرغم من مضى أكثر من قرن ونصف قرن فإن كتاب تداعى الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ما يزال محتفظاً بمكانته وما يزال جيبون يعد عمدة المؤرخين ، والأستاذ بيورى وهو فى طليعة الثقات الأثبات يقول عن كتابه « إذا أدخلنا فى اعتبارنا اتساع مدى موضوع كتابه فإن دقته مدهشة » ولا يزال الكتاب مرجعاً موثوقاً به لقراء التاريخ من عهد القيصر أغسطس إلى عهد أحياء العلوم .

ولكن ليس معنى ذلك أن كتاب جيبون قد خلا من العيوب وسلم من الأخطاء ، وليس فى وسع مؤرخ بالغاً ما بلغ من الدقة والتحرى وأصالة الأحكام وسداد الآراء وقوة التصوير وسعة الخيال أن يحيط بأطراف موضوعه من جميع نواحيه ، وما دامت هناك وثائق يكشف عنها النقاب ومستندات تظهر من طى الخفاء ، ومخطوطات يعثر عليها وآثار مطمورة تبرز للعيان وتخرج من مدارج النسيان فان أحكام التاريخ ستظل عرضة للتغيير وتصوراته ستظل هدفاً للتعديل والتنقيح .

وأهم تغيير طرأ على البحوث التاريخية بعد عهد جيبون هو زيادة العناية ببحث صحة المادة التى يستمد منها المؤرخ ويقيم عليها أحكامه وتصوراته ، وقد أصبح بحث المراجع والأصول وتقدير قيمتها والتأكد من

صحتها علماً قائماً بذاته، ولا يكتفى الآن بمجرد الرجوع إلى المراجع والأصول والوثائق بل يمتد البحث الآن إلى تقدير قيمة الوثائق والمراجع والأصول فى حد ذاتها ، وهل هى جديرة بالاعتماد عليها أو غير مستحقة لذلك فقد تكون الوثيقة مزيفة مدخولة وقد يكون محررها إنساناً موتوراً لا يوثق بأخباره ولا يعول على روايته وقد يكون المشاهد غائب الحس كثير الغفلة فلا تقبل شهادته ويشك فى روايته ، وبعض المراجع التى اعتمد عليها جيبون قد نبذت وأصبحت غير جديرة بأن يوثق بها ، وبعض الأخبار التى كان يظنها حقائق قد ظهر أنها مجرد أوهام أو مفتريات ، من قبيل ذلك الأخبار التى استمدها جيبون من بروكوبيوس ، وقد اعتمد عليه جيبون فيما كتبه عن جستنيان وعهده ، ونقل الكثير من الحوادث المريبة التى كان لبروكوبيوس ولع شديد بتلفيقها ، وقد طعن البحث الحديث فى صدقه واتهم أمانته ورمى بأنه هجاء نزاع إلى الشتم والسباب والتنقص وأنه حزبى النزعة ، كما اعتمد فيما كتبه عن الإسلام على الواقدى وهو ليس فى المكانة الأولى بين مؤرخى الإسلام الموثوق بهم .

ومما أخذ على جيبون فى تاريخه أنه كان فى بعض الأحيان يستكمل نقص المعلومات التى استطاع جمعها بالاستشهاد بروايتين لتأكيد خبر بعينه فى حين أن الروايتين يرجعان إلى أزمنة مختلفة متباعدة ، وهى طريقه يعيبها المؤرخون المحدثون ، ويعدونها ضارة وغير ملائمة للفقه التاريخى ، ويضربون مثلا لذلك حديثه عن عادات القبائل الألمانية وأحوالها ، فانه فى سبيل المحافظة على الوحدة الفنية فى سرده أدمج ببراعته المعهودة الحقائق التى جمعها من كتاب يوليوس قيصر بما جمعه من كتابات المؤرخ الرومانى الشهير تاسيتوس متجاهلا التغيرات التى حدثت فى خلال مائة السنة التى تفصل بين ما كتبه قيصر وما كتبه تاسيتوس .

وتكاثر المادة التاريخية التى تجمعت بعد عهد جيبون غيرت وجهات النظر فى تقدير بعض الحوادث الهامة التى عرض لها ، فبعض المسائل التى مر بها جيبون مراً سريعاً قد زادت المعلومات الجديدة عناية المؤرخين المحدثين بها وجعلتهم أقدر على وزن أهميتها ويبدو ذلك واضحا فيما كتبه جيبون عن الدولة البيزانطية التى أساء جيبون فيما يرى البحث الحديث فهمها وقلل من أهميتها ، وقد صار واضحاً فى العصر الحاضر أن ما كتبه جيبون عن الفترة الممتدة من عهد ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ - ٧٤١) إلى عهد باسيل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥) أصبح لا يصلح حتى باعتباره صورة موجزة ، ونظريته فى أن تلك الفترة كانت فساداً مضطرداً وانحطاطاً يقول عنها بيورى « إنها من أنأى الأحكام التى نطق بها مؤرخ مفكر عن الصواب » .

وأختم الحديث عن كتاب جيبون بكلمة كوتر موريسون فى كتابه عن جيبون وهى من خير ما قرأت فى تقدير جيبون وكتابه ، وهو يقول فى هذه الكلمة « إذا كان المؤرخ يتخلى عن مهمته العالية وتحفظه الشديد وتستميله الإغراءات التى تعترض طريقه فيحول التاريخ إلى دعاية سياسية أو هراء شعرى أو حكم أخلاقية أو فاجعه صارخة حافلة بالمفاجآت فانه يخطىء فى حق عمله ، وقد تحاشى جيبون هذه الإغراءات وإذا كان كتابه « تداعى الإمبراطورية الرومانيــة وسقوطها » لا نظير له فى المؤلفات التاريخية فليس السبب فى ذلك عمق معرفته وسعة اطلاعه وتمكنه من موضوعه فحسب ، فإنه بحصافته وحسن تقديره قد قصر جهده على عمله مؤرخاً ، وحياة جيبون ليست جد شائقة ، ولكن كتابه سيظل عالى المكانة ومن الآثار الأدبية الفخمة » .

والبحاثة المؤرخ فردريك هاريسون يقول عنه فى كتابه عن « معنى التاريخ » ما نصه « ليس من المفارقات الشخصية وإنما هو حكم كل الرجال الذين لهم قدرة

على الحكم أن كتاب تداعى الإمبراطورية الرومانية وسقوطها الذى ألفه جيبون هو خير المؤلفات التاريخية الموجودة بأى لغة من اللغات ، وهو يجمع بين الأمانة والتدقيق فى استقصاء الحقائق وبلوغ حد الكمال فى صياغتها الأدبية الفنية وقد استوعب تحليل القوى التى كانت تؤثر فى المجتمع خلال فترة من الزمن جد طويلة ومزدحمة » .

وقد عرض جيبون لحياة نبينا الكريم العظيم محمد ابن عبدالله فقال ضمن كلامه عنه « أصل محمد من قبيلة قريش ومن أسرة هاشم وهى من ألمع الأسر العربية وسادة مكة والأوصياء بالوراثة على الكعبة ، وجده عبد المطلب بن هاشم كان من رجال مكه الكرماء الأثرياء وقد فرج ضائقة الناس فى المجاعة بالميرة التى جلبتها تجارته ، ومكة التى أطعمها كرم الوالد أنقذتها شجاعة الابن ، فقد كانت المملكة اليمنية خاضعة لأمراء الأحباش المسيحيين ، وثار عاملهم عــلى اليمن ابرهة بسبب إهانة لينتقم دفاعاً عن شرف الصليب وحاصر المدينة المقدسة بجيش من الأفارقة ومجموعة من الفيلة ، وتم عقد معاهدة ، وفى أول اجتماع طلب جد محمد رد ماشيته إليه فقال له ابرهة « ولم ذلك ؟ ألم تتقدم إلى بالرجاء للمحافظة على معبدك الذى هددت بهدمه ؟ » فأجابه الرئيس الشجاع قائلا « إن الماشية ملكى أما الكعبة فهى بيت الله وربها يحفظها » وأرغم نقص مواد الغذاء أو شجاعة قريش الأحباش على أن يرتدوا ويلوذوا بالفرار ، وأصابتهم فى هربهم الطير الأبابيل التى كانت ترميهم بحجارة من سجيل وسمى عام هزيمتهم عام الفيل . وكان عبدالله أحب أولاد عبد المطلب إليه وكان من أجمل شبان العرب صورة وأكثرهم حياء ، وقد ولد ابن عبدالله وآمنة بمكة بعد موت جستنيان بأربعة أعوام وبعد هزيمة الأحباش بشهرين ، وفقد فى باكورة طفولته والده ووالدته وجده ، وكان أعمامه كثيرين وأقوياء . . وكان عمه أبو طالب أكثر أعمامه احتراماً ومكانة مرشده والقيم عليه فى شبابه . . ثم تزوج السيدة خديجة ، وحينما بلغ الأربعين صار نبياً ونزل عليه القرآن . . وكان محمد يمتاز بجمال منظره وجلال محضره »

وتقديره بوجه عام لنبينا الكريم خال من تلك السخافات التى كان يسوقها التعصب والجهل وضيق الفكر إلى أقلام الكثيرين ممن كانوا يتعرضون للكتابة عن الإسلام ونبيه فى القرن الثامن عشر كما حدث للكاتب الفيلسوف فولتير الذى تورط فى هذا الموضوع عن جهل وأفن رأى .

ومن وصفه لعلى بن أبى طالب قوله « كان يجمع بين مواهب الشاعر والجندى والقديس ، وما تزال حكمته متضمنة فى مجموعة من الأحاديث الأخلاقية والدينية ، وكل مناوئ فى معارك اللسان أو السيف كان يخضعه على ببلاغته وشجاعته ، ومنذ بدء الرسالة إلى وفاة الرسول لم يتخل عنه صديقه الكريم الذى كان يسره أن يدعوه الرسول أخاه وأنه منه بمكانة هارون من موسى . . . » .

ومن وصفه لأخلاق شرلمان وحديثه عن سيرته قوله « لقد أطلق كثيراً على شارلمان وصف « العظيم » وقد كان جديراً به فى بعض الأحيان ، ولكن شارلمان هو الأمير الوحيد الذى من أجل مصلحته قد امتزج اللقب بالاسم ، وفى التقويم الرومانى قد أضيف إلى جانب اسمه لقب قديس ، وهذا القديس بسهولة نادرة قد توج بأمداح المؤرخين والفلاسفة فى عصر مستنير ، وليس من شك فى أنه مما زاد فى قيمته الحقيقية همجية العصر الذى نبغ فيه والقوم الذين ظهر بينهم ، ولكن الضخامة الظاهرة بشىء من الأشياء تزيدها المقارنة غير المتعادلة ، وأطلال بالميرا تستمد بهاء عرضياً من الصحراء العارية المحاسر التى تحيط بها ، وبدون أن أسىء إلى شهرته يمكن أن أستبين بعض الهنات فى قداسة الذى أعاد الحياة إلى الإمبراطورية الغربية وفى عظمته ، ولم تكن عفة الإزار أبرز فضائله الأخلاقية ، ولكن

سعادته العامة لم تكن تضار مادياً باتخاذه تسع زوجات أو حظيات وانغماساته العديدة فى علاقات غرامية أكثر ضعة وأسرع زوالا وعدد أولاد الزنى الذين كان يجود بهم على الكنيسة وعزوبة بناته الطويلة ودعارتهن ، وكان أبوهن يشتبه فى حبه لهن بشغف يزيد عن الحد ، وبصعوبة أسمح لنفسى باتهام مطامع أحد الغزاة الفاتحين ، ولكن فى يوم الجزاء العادل فإن أبناء أخيه كارلمان والأمراء الميروفنجيين فى اكويتان وأربعة الآلاف والخمسمائة من السكسونيين الذين أطار رءوسهم فى البقعة نفسها كل هؤلاء سيكون لهم شىء يحتجون به على عدالة شارلمان وإنسانيته ، ولقد كانت معاملته للسكسونيين المنهزمين اهداراً لحق الغزو ، ولم تكن قوانينه أقل ميلا إلى سفك الدماء من أسلحته ، وفى استقراء دوافعه ما يمكن استبعاده من تعصبه لا بد أن يعزى إلى مزاجه ، والقارئ الذى كثيراً ما يلازم القعود يدهشه حركة عقله وجسده التى لا تهدأ ، ورعاياه وأعداؤه لم يكونوا أقل تعجباً من حضوره المفاجىء فى الوقت الذى كانوا يحسبونه فيه بأقصى نواحى الإمبراطورية ، ولم يكن الحرب ولا السلم ولا الصيف ولا الشتاء أوقات راحة واستجمام له ، ولا يستطيع خيالنا أن يوفق بسهولة بين حوليات عصره وجغرافيا حملاته ، ولكن هذا النشاط كان فضيلة قومية لا مزية شخصية ، فقد كانت حياة قبائل الفرانك تقضى فى الصيد والحج إلى الأماكن المقدسة والمغامرات الحربية ، ورحلات شارلمان كانت تمتاز بكثرة الحشود من الأتباع وبالأغراض الأهم ، وشهرته الحربية يلزم أن تقدر بفحص جيوشه وأعدائه وأعماله ، وقد باشر الإسكندر غزواته بأسلحة فيليب ولكن البطلين اللذين سبقا شارلمان خلفا له اسمهما ومثليهما وأعوانهما فى انتصاراتهما ، وهو على رأس جنوده المدربين وجيوشه الأكثر عدداً وتفوقاً اضطهد المستوحشين أو القوميات المتدهورة التى كانت عاجزة عن التحالف من أجل سلامتها المشتركة ، ولم يلق قط خصما يعادله فى العدد والنظام أو فى السلاح ، وعلم الحرب فقد وأعيد إلى الحياة مع فنون السلم ولكن غزواته لا يوضحها أى حصار أو معركة امتازا بالصعوبة والنجاح ، وربما كان ينظر فى حسد إلى نصب انتصارات جده لأبيه على المشارقة ، وفى أعقاب حملته الأسبانية هزمت مؤخرة جيشه فى جبال البرانس ، والجنود الذين كان موقفهم موجباً لليأس والذين لم يكن هناك فائدة لشجاعتهم كانوا يستطيعون مع لفظ آخر أنفاسهم أن يتهموا قائدهم بنقص البراعة وقلة الحيطة » .

وفى تحليله لشخصية تيمورلنك يقول « غشيت شهرة تيمور الشرق والغرب ، ولا تزال ذريته تحمل اللقب الإمبراطورى ، واعجاب رعيته به الذى يكاد يرفعه إلى مصاف الآلهة يسوغه إلى حد ما مدح أو اعتراف أعدى أعدائه ، وقد كان أعرج ولكن طلعته وقامته كانتا جديرتين بمكانته ، وقوة بنيته التى كانت لازمة له وللدنيا كان يؤيدها ويشد منها عفته وممارسته الرياضة البدنية ، وكان فى حديثه العادى وقوراً جاداً ومعتدلا ، وإذا كان يجهل اللغة العربية فانه كان يتكلم الفارسية والتركية بطلاقة ورشاقة ، وكان يجد متعة فى محادثته مع العلماء فى موضوعات التاريخ والعلوم ؛ وكانت مسلاته فى سويعات فراغه لعب الشطرنج التى أصلحها أو أفسدها بادخال تحسينات جديدة عليها ، وكان متحمساً فى دينه ، ولكنه ربما لم يكن مسلماً محافظاً ، وفهمه السليم يميل بنا إلى الاعتقاد بأن احترامه الخرافى للنذر والنبوءات والأولياء والمنجمين كان مصطنعاً باعتباره أداة سياسية ، وفى حكومة دولته المترامية الأطراف كان يقف منفرداً لا معقب لكلمته ولا يتحدى سلطانه ثائر عليه ولا تستميل عواطفه حظية ولا يضلل أحكامه وزير ، وكان المبدأ الذى يستمسك به ويحرص عليه هو أنه مهما يكن من الأمر فان كلمة الأمير لا تعارض أبداً ولا تسحب ، ولكن أعداءه قد لاحظوا حاقدين أن أوامر غضبه ونقمته كانت تنفذ

بدقة أكثر من أوامره بالبر والاحسان والرعاية والتفضل . وربما لم يكن قلبه خلواً من الفضائل الاجتماعية وربما كان أهلا لأن يحب أصدقاءه ويصفح عن أعدائه ، ولكن قواعد الأخلاق قائمة على الصالح العام ، وربما كان كافياً أن نمتدح حكمة الملك للكرم الذى لا يجعله فقيراً وللعدالة التى تزيد مكانته ثباتاً وقوة وتغنيه ، والمحافظة على التوازن بين السلطة والطاعة ومعاقبة المتكبرين وحماية الضعفاء وإثابة الجديرين بالمثوبة واقصاء الرذيلة والكسل من ممتلكاته وتوفير الأمن للمسافر والتاجر وكبح جماح الجنود ومنعهم من السلب والنهب وتقدير عمل المزارع الذى يفلح الأرض وتشجيع الصناعة والعلم وزيادة الإيرادات دون زيادة الضرائب كل ذلك هو واجب الأمراء ، ولكن الأمير فى نهوضه بهذا الواجب يجد الجزاء الوافى المباشر ، وكان فى مستطاع تيمور أن يفخر بأنه عند اعتلائه العرش كانت آسيا فريسة للفوضى والنهب والسلب فى حين أنها تحت حكمه الناجح الموفق كان يستطيع الطفل فى غير خوف ولا وجل أن يحمل كيساً ممتلئاً بالذهب من الشرق إلى الغرب دون أن يناله أذى أو يمسه سوء » .

وفى وصفه لاقتراب الصليبيين من القسطنطينية فى سنة ١٢٠٤ يقول جيبون « كانت الريح مؤاتية والسماء صافية ومياه البحر لينة هادئة وقد اتجهت الأنظار فى دهشة وسرور إلى المنظر الحربى الفخم الذى كان يطالعهم من ناحية البحر ، وكانت دروع الفرسان وأتباعهم — وهى حلية وزينة وفى الوقت نفسه وسيلة للدفاع — قد اصطفت على جانبى السفن ، وكانت أعلام الأمم والأسرات خفاقة فى مؤخرات السفن ، وزودت مدفعيتنا الحديثة بثلثمائة آلة لرمى الأحجار والسهام ، وخفف وقع متاعب الطريق بنغمات الموسيقى ، ورفعت روح المغامرين المعنوية بالتأكيد المتبادل بأن أربعين ألفاً من أبطال المسيحيين يستطيعون غزو الأرض برمتها ، وكانوا وهم يمرون يرنون فى اعجاب إلى عاصمة الشرق أو كما كان يبدو لهم عاصمة الأرض وهى صاعدة بتلالها السبعة ومشرفة من عليائها على قارتى أوروبا وآسيا ، وكانت القبب الضخمة والأبراج العالية المنبعثة من القصور والكنائس قد انعكست عليها أشعة الشمس الذهبية وتبدى خيالها فى الماء ، وكانت الأسوار غاصة بالجنود والمشاهدين ، وكانوا يرون ضخامة عددهم ولكنهم يجهلون طباعهم ، وكانت تحيك فى كل قلب فكرة أنه منذ بدء الخليقة لم يحاول القيام بمثل هذه المغامرة مثل هذا العدد القليل من المحاربين ، ولكن سرعان ما بدد سحب هذا الخوف الموقوت الأمل والاقدام وأخذ كل رجل ينظر إلى السيف أو الرمح الذى سيستعمله عما قريب فى المعركة المجيدة » .